

نصائح الإمام الذهبي لطلبة العلم من كتابه (سير أعلام النبلاء)

جمعها ورتبها
جاء الله بن حسن الخدّاش

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وبعد، فهذه مجموعة نصائح لطلبة العلم، صالحة لسلوكهم مصلحة لنفوسهم تحثهم على المثابرة وتحصيل الخير، جمعتها لإخواني طلبة العلم من كتاب «سير أعلام النبلاء» للإمام الحافظ الذهبي، ومع أن هذا الموضوع أثري بمؤلفات وكتب مستقلة أفادت وأجادت إلا أن نصائح الإمام الذهبي تبقى في المقدمة؛ لما لها من وقع في قلوب طلبة العلم وأثر حسن، ولا أدل على ذلك من استشهادهم دوماً بها وحسبك بالشيخ الفاضل بكر بن عبد الله أبوزيد الذي نفع الله بكتبه ومصنفاته الذي أكثر من النقل من هذه النصائح في كتابيه الرائعين «التعالم» و«حلية طالب العلم»، وكل من كتب من المعاصرين في هذا الباب فهم عيال على الذهبي ومن شاكله من أهل العلم، نسأل الله تعالى أن ينفع بها صاحبها وأهل الفضل والعلم.

والله من وراء القصد،،

الإخلاص في طلب العلم

قال الإمام الذهبي رحمه الله:

(ينبغي للعالم أن يتكلم بنية وحسن قصد، فإن أعجبه كلامه فليصمت، فإن أعجبه الصمت فلينتق، ولا يفتر عن محاسبة نفسه، فإنها تحب الظهور والثناء)^(١).

وقال أيضاً:

(فكم من رجل نطق بالحق، وأمر بالمعروف، فَيَسْلُطَ اللهُ عليه من يؤذيه لسوء قصده، وحبُّه للرئاسة الدينية، فهذا داء خفي سار في نفوس الفقهاء، كما أنه داء سار في نفوس المنفقين من الأغنياء وأرباب الوقوف والترب المزخرفة، وهو داء خفي يسري في نفوس الجند والأمراء والمجاهدين، فزاهم يلتقون العدو، ويصطدم الجمعان وفي نفوس المجاهدين مُحَيَّاتٍ، وكما أن من الاختيال وإظهار الشجاعة ليقال، والعجب، ولُبْسِ القراقل المذهَّبة، والخذوذ المزخرفة، والعدد المحلاة على نفوس متكبرة، وفُرسان متجبرة، وينضاف إلى ذلك إخلالٌ بالصلاة، وظلم للرعية، وشرب للمسكر، فأنى يُنصرون؟ وكيف لا يُخذلون؟ اللهم: فانصر دينك، ووفق عبادك. فَمَنْ طلب العلم للعمل كسره العلم، وبكى على نفسه، ومن طلب العلم للمدارس والإفتاء والفخر والرياء، تحامق، واختال، وازدرى بالناس، وأهلكه العُجب، ومَقَتَّتُهُ الأنفس: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [سورة الشمس: (٩-١٠)] أي: دَسَّسَهَا بالفُجور والمعصية^(٢).

وقال رحمه الله:

(فقد ترى الرجل ورعاً في مأكله وملبسه ومعاملته، وإذا تحدّث يدخل عليه الداخل من

(١) السير: (٤/٤٩٤).

(٢) السير: (١٨/١٩١).

حديثه، فإما أن يتحرى الصدق، فلا يكمل الصدق، وإما أن يصدق، فينمق حديثه ليمدح على الفصاحة، وإما أن يظهر أحسن ما عنده ليعظم، وإما أن يسكت في موضع الكلام، ليثني عليه. ودواء ذلك كله الانقطاع عن الناس إلا من الجماعة^(١).

وقال في ترجمة ابن جريح:

(قال الوليد ابن مسلم: سألت الأوزاعي، وسعيد بن عبد العزيز وابن جريح: لمن طلبتم العلم؟ كلهم يقول: لنفسي، غير ابن جريح، فإنه قال: طلبته للناس

قلت- أي الإمام الذهبي-: ما أحسن الصدق! واليوم تسأل الفقيه الغبي: لمن طلبت العلم؟ فيأدر ويقول: طلبته لله، ويكذب إنما طلبه للدنيا، ويا قلة ما عرف منه^(٢).

وقال:

(وأنت ظالم وترى أنك مظلوم، وأكل للحرام وترى أنك متورع، وفاسق وتعتقد أنك عدل، وطالب العلم للدنيا وترى أنك تطلبه لله^(٣)).

تحصيل النية في الطلب

قال رحمه الله تعالى:

(وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر قال: كان يقال: إن الرجل يطلب العلم لغير الله، فيأبى عليه العلم حتى يكون لله.

قلت: نعم، يطلبه أولاً، والحامل له حُب العلم، وحُب إزالة الجهل عنه، وحُب

(١) السير: (٨/ ٤٣٤).

(٢) السير: (٦/ ٣٢٨).

(٣) السير: (٨/ ٤٤٠).

الوظائف، ونحو ذلك. ولم يكن عِلْمٌ وجوبَ الإخلاص فيه، ولا صدقَ النية، فإذا علمَ، حاسبَ نفسه، وخاف من وبالِ قصده، فتجيئه النية الصالحة كلها أو بعضها، وقد يتوبُ من نيته الفاسدة ويندمُ. وعلامة ذلك أنه يُقصر من الدعاوى وحبِّ المناظرة، ومن قصد التَّكثُر بعلمه، ويُزري على نفسه، فإن تكثر بعلمه، أو قال: أنا أعلمُ من فلان، فبعْداً له^(١).

وقال:

قال عَوْن بن عُمارة: سمعتُ هشاماً الدَّستوائي يقول: والله ما أستطيع أن أقول: إني ذهبتُ يوماً قطُّ أطلبُ الحديث أريدُ به وجهَ الله عز وجل.

قلتُ: والله ولا أنا. فقد كان السَّلَفُ يطلبون العلم لله فَبَلَّوا، وصاروا أئمة يُقتدى بهم، وطلبه قومٌ منهم أولاً لا لله، وحصلوه، ثم استفاقوا، وحاسبوا أنفسهم، فجرَّهم العلمُ إلى الإخلاص في أثناء الطريق، كما قال مُجاهد وغيره: طلبنا هذا العلم وما لنا فيه كبيرُ نية، ثم رزق الله النية بعدُ، وبعضهم يقولُ: طلبنا هذا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله. فهذا أيضاً حسن. ثم نشره بنية صالحة.

وقوم طلبوه بنية فاسدة لأجل الدنيا، وليثنى عليهم، فلهم ما نورا: قال عليه السلام: (مَنْ غَزَا يَنْوِي عِقَالاً فَلَهُ مَا نَوَى)^(٢). وترى هذا الضرب لم يستضيئوا بنور العلم، ولا هم وقعَ في النفوس، ولا لعلمهم كبير نتيجة من العمل، وإنما العالمُ من يخشى الله تعالى.

وقوم نالوا العلم، وولوا به المناصب، فظلموا، وتركوا التقيُّد بالعلم، وركبوا الكبائر والفواحش، فتبَّأ لهم، فما هؤلاء بعلماء!

(١) السير: (١٧/٧).

(٢) أخرجه أحمد: (٣١٥/٥)، والدارمي: (٢٠٨/٢)، والنسائي: (٢٤/٦).

وبعضهم لم يتق الله في علمه، بل ركب الحيل، وأفتى بالرخص، وروى الشاذ من الأخبار. وبعضهم اجتزأ على الله، ووضع الأحاديث، فهتكه الله، وذهب علمه، وصار زاده إلى النار. هؤلاء الأقسام كلهم رَوَوْا من العلم شيئاً كبيراً، وتضلّعوا منه في الجملة، فخلّف من بعدهم خلف بأنّ نقصهم في العلم والعمل، وتلاههم قوم انتموا إلى العلم في الظاهر، ولم يتقنوا منه سوى نزر يسير، أو هموا به أنهم علماء فضلاء، ولم يدُرْ في أذهانهم قطُّ أنهم يتقربون به إلى الله، لأنهم ما رأوا شيخاً يُقتدى به في العلم، فصاروا همجاً رعاعاً، غاية المدرّس منهم أن يُحصل كتباً مثمّنة يخرّنها وينظر فيها يوماً ما، فيصحّف ما يورده ولا يقرّره. فسأل الله النجاة والعفو، كما قال بعضهم: ما أنا عالم ولا رأيت عالماً^(١).

وقال رحمه الله تعالى:

(قال أبو قطن: سمعتُ شعبة بن الحجاج يقول: ما شيء أخوفَ عندي من أن يُدخلني النار من الحديث.

وعنه قال: وددتُ أني وقاد حمّام، وأنّي لم أعرف الحديث.

قلت: كل من حاقق نفسه في صحة نيته في طلب العلم يخاف من مثل هذا، ويودُّ أن ينجو كفافاً^(٢).

التقوى مع العلم

قال الإمام الذهبي رحمه الله: (وإنما شأن المحدث اليوم الاعتناء بالدواوين الستة، ومسند أحمد بن حنبل، وسنن البيهقي، وضبط متونها وأسانيدها، ثم لا ينتفع بذلك حتى يتقي

(١) السير: (٧/ ١٥٢). قارن ما كتبه الذهبي بحالنا اليوم، ترى عجباً [أجلة].

(٢) السير: (٧/ ٢١٣).

ربه، ويدين بالحديث، فعلى علم الحديث وعلمائه لِيَبْكُ من كان باكياً، فقد عاد الإسلام
الحض غريباً كما بدأ، فليسع امرؤ في فكاك رقبته من النار، فلا حول ولا قوة إلا بالله.
ثم العلم ليس هو بكثرة الرواية، ولكنه نور يقذفه الله في القلب، وشرطه الإتيان
والفرار من الهوى والابتداع، وفقنا الله وإياكم لطاعته^(١).

طلب العلم وصلاة النافلة

قال رحمه الله: (قال أبو أسامة: سمعت مسعراً يقول: إن هذا الحديث يصدّكم عن ذكر
الله، وعن الصلاة، فهل أنتم متتهون؟

قلت: هذه مسألة مختلف فيها: هل طلب العلم أفضل، أو صلاة النافلة والتلاوة
والذكر؟ فأما من كان مخلصاً لله في طلب العلم، وذنه جيد، فالعلم أولى، ولكن مع حظ
من صلاة وتعب، فإن رأيت مجداً في طلب العلم، لا حظ له في القربات، فهذا كسلان
مهيّن، وليس هو بصادق في حسن نيته. وأما من كان طلبه الحديث والفقّه غيّةً ومحبةً
نفسانية، فالعبادة في حقه أفضل، بل ما بينهما أفعّل تفضيل، وهذا تقسيم في الجملة، فقل -
والله- من رأيت مخلصاً في طلب العلم، دعنا من هذا كله. فليس طلب الحديث اليوم على
الوضع المتعارف من حيّز طلب العلم، بل اصطلاح وطلب أسانيد عالية، وأخذ عن شيخ
لا يعي، وتسميع لطفل يلعب ولا يفهم، أو لرضيع يبكي، أو لفقيه يتحدث مع حدّث، أو
آخر ينسخ. وفاضلهم مشغول عن الحديث بكتابة الأسماء أو بالنعاس، والقارئ إن كان له
مشاركة، فليس عنده من الفضيلة أكثر من قراءة ما في الجزء، سواء تصحّف عليه الاسم،
أو اختبط المتن، أو كان من الموضوعات. فالعلم عن هؤلاء بمغزل، والعمل لا أكاد أراه،

(١) السير: (١٣/٣٢٣).

بل أرى أموراً سيئة. نسأل الله العفو^(١).

وقال في ترجمة الإمام مالك بعد مقولة ابن المبارك:

(ما رأيت أحداً ارتفع مثل مالك، ليس له كثير صلاة ولا صيام، إلا أن تكون له سريرة.

قلت: ما كان عليه من العلم ونشره، أفضل من نوافل الصوم والصلاة لمن أراد به الله^(٢).

فضل تعليم القرآن

قال رحمه الله:

(فقد ثبت قول المصطفى صلوات الله عليه: (أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه)^(٣)، يا سبحان الله! وهل محل أفضل من المسجد؟ وهل نشر لعلم يقارب تعليم القرآن؟ كلا والله، وهل طلبة خير من الصبيان الذين لم يعملوا الذنوب؟)^(٤).

شرط الحافظ

وقال رحمه الله تعالى:

(الأمانة جزء من الدين، والضبط داخل في الحذق، فالذي يحتاج إليه الحافظ أن يكون

(١) السير: (٧ / ١٦٧).

(٢) السير: (٨ / ٩٧).

(٣) أخرجه البخاري: (٥٠٢٧) و(٥٠٢٨)، وأبو داود: (١٤٥٢)، والترمذي: (٢٠٩٩)، وابن ماجه: (٢١١)،

وأحمد: (١ / ٥٧، ٥٨، ٦٩)، والدارمي: (٢ / ٤٣٧)، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٤) السير: (٦ / ٣٩٦).

تقياً ذكياً، نحوياً لغوياً، زكياً حياً، سلفياً، يكفيه أن يكتب بيده مائتي مجلد، ويحصل من الدواوين خمس مائة مجلد، وأن لا يفتر من طلب العلم إلى الممات، بنية خالصة، وتواضع، وإلا فلا يتعن^(١).

نصيحة للأحداث من طلبة العلم

قال في ترجمة الإمام أحمد:

(قال ابن عقيل: من عجيب ما سمعته عن هؤلاء الأحداث الجهال، أنهم يقولون: أحمد ليس بفقيه، لكنه محدث، قال: وهذا غاية الجهل، لأن له اختيارات بناها على الأحاديث بناء لا يعرفه أكثرهم، وربما زاد على كبارهم.

قلت: أحسبهم يظنون أنه كان محدثاً وبس، بل يتخيلونه من بابة محدثي زماننا، والله لقد بلغ في الفقه خاصة رتبة الليث، ومالك، والشافعي، وأبي يوسف، وفي الزهد والورع رتبة الفضيل، وإبراهيم بن أدهم، وفي الحفظ رتبة شعبة، ويحيى القطان، وابن المديني، ولكن الجاهل لا يعلم رتبة نفسه، فكيف يعرف رتبة غيره!«^(٢).

الشيخ مع تلميذه والتلميذ مع شيخه

قال رحمه الله تعالى:

(ينبغي للمريد أن لا يقول لأستاذه: لِمَ، إذا علمه معصوماً لا يجوز عليه الخطأ، أما إذا كان الشيخ غير معصوم وكره قول: لِمَ؟ فإنه لا يفلح أبداً، قال الله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ [سورة المائدة: (٢)]، وقال: ﴿وتواصوا بالحق﴾ [سورة العصر: (٣)]،

(١) السير: (١٣/ ٣٨٠).

(٢) السير: (١١/ ٣٢١).

﴿وتواصوا بالمرحمة﴾ [سورة البلد: (١٧)].

بلى هنا يريدون أثقال أنكاد، يعترضون ولا يقتدون، ويقولون ولا يعملون، فهؤلاء لا يفلحون^(١).

ردود العلماء بعضهم على بعض

قال رحمه الله:

(ما زال العلماء قديماً وحديثاً يرد بعضهم على بعض في البحث، وفي التواليف، وبمثل ذلك يتفقه العالم، وتبرهن له المشكلات، ولكن في زماننا قد يعاقب الفقيه إذا اعتنى بذلك لسوء نيته، ولطلبه للظهور والتكثر، فيقوم عليه قضاة وأضداد، نسأل الله حسن الخاتمة وإخلاص العمل)^(٢).

وصية طلبة العلم بكتب البيهقي

قال رحمه الله:

(فتصانيف البيهقي عزيمة القدر، غزيرة الفوائد، قل من جود توافيه مثل الإمام أبي بكر، فينبغي للعالم أن يعتني بهؤلاء سيما «سُنَّه الكبير»، وقد قدم قبل موته بسنة أو أكثر إلى نيسابور، وتكاثر عليه الطلبة، وسمعوا منه كتبه، وجلبت إلى العراق والشام والنواحي، واعتنى بها الحافظ أبو القاسم الدمشقي، وسمعها من أصحاب البيهقي، ونقلها إلى دمشق هو وأبو الحسن المرادي.

(١) السير: (١٧/ ٢٥٢).

(٢) السير: (١٢/ ٥٠١).

وبلغنا عن إمام الحرمين أبي المعالي الجويني قال: ما من فقيهٍ شافعيٍّ إلا وللشافعي عليه مِنَّةٌ إلا أبا بكر البيهقي، فإنَّ المَنَّةَ له على الشافعي، لتصانيفه في نُصرة مذهبه^(١).

الوصية بأربعة كتب

قال رحمه الله:

(قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام- وكان أحد المجتهدين-: ما رأيتُ في كتب الإسلام

في العلم مثل «المخلّى» لابن حزم، وكتاب «المُغني» للشيخ موفق الدين.

قلتُ: لقد صدق الشيخ عز الدين. وثالثهما: «السنن الكبير» للبيهقي.

ورابعها: «التمهيد» لابن عبد البر. فمن حصَّل هذه الدواوين، وكان من أذكى المفتين، وأدمن المطالعة فيها، فهو العالم حقاً^(٢).

وصية خاصة

وقال في ترجمة أبي قلابة عبد الله بن زيد الجرمي:

(وعن أيوب عن أبي قلابة قال: إذا حدثت الرجل بالسنة، فقال: دعنا من هذا، وهات كتاب الله، فاعلم أنه ضال.

قلت أنا- أي الإمام الذهبي -: وإذا رأيت المتكلم المتبدع يقول: دعنا من الكتاب والأحاديث الآحاد، وهات العقل، فاعلم أنه أبو جهل، وإذا رأيت السالك التوحيدي

(١) السير: (١٨/ ١٦٨).

(٢) السير: (١٨/ ١٩٣).

يقول: دعنا من النقل ومن العقل، وهات الذوق والوجد، فاعلم أنه إبليس قد ظهر بصورة بشر، أو قد حلّ فيه، فإن جنت منه، فاهرب، وإلا فاصرعه وأبرك على صدره واقرأ عليه آية الكرسي واخنقه^(١).

ضحك طالب العلم

قال الإمام الذهبي:

(قلت: الضحك اليسير والتبسم أفضل، وعدم ذلك من مشايخ العلم على قسمين: أحدهما: يكون فاضلاً لمن تركه أدباً وخوفاً من الله، وخزناً على نفسه المسكينة. والثاني: مذموم لمن فعله حقاً وكُبراً وتصنعاً، كما أنّ من أكثر الضحك استخفّ به، ولا ريب أن الضحك في الشباب أخفّ منه وأعذر منه في الشيوخ. وأما التبسم وطلاقة الوجه فأرفع من ذلك كله، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (تبسمك في وجه أخيك صدقة)^(٢)، وقال جرير: ما رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا تبسم^(٣). فهذا هو خلق الإسلام، فأعلى المقامات من كان بكاءً بالليل، بساماً بالنهار. قال عليه السلام: (لَنْ تَسْعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، فَلْيَسْعَهُمْ مِنْكُمْ بِسَطِّ الْوَجْهِ)^(٤). بقي هنا شيء: ينبغي لمن كان ضحوكاً بساماً أن يُقصر من ذلك، ويلوم نفسه حتى لا

(١) السير: (٤/ ٤٧٢).

(٢) أخرجه البخاري في ((الأدب المفرد)): (٨٩١)، والترمذي: (١٩٥٦) وحسنه، وأحمد: (١٦٨ / ٥)، وابن حبان: (٨٦٤)، وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه البخاري: (٣٠٣٥)، ومسلم: (٢٤٧٥).

(٤) أخرجه البزار: (١٩٧٧)، والحاكم: (١ / ١٢٤)، وأبو نعيم: (٢٥ / ١٠)، وأورده الهيثمي في المجمع، وضعفه بعبد الله بن سعيد.

تَجَّهَ الْإِنْفَس، وَبِنَفْيِ لِمَن كَانَ عِبُوساً مُنْقَبِضاً أَنْ يَتَبَسَّمَ، وَيُحَسِّنَ خَلْقَهُ، وَيَمَقَّتَ نَفْسَهُ عَلَى رِدَاءَةِ خَلْقِهِ، وَكُلُّ انْحِرَافٍ عَنِ الْإِعْتِدَالِ فَمَذْمُومٌ، وَلَا بَدْءٌ لِلنَّفْسِ مِنْ مُجَاهِدَةٍ وَتَأْدِيبٍ^(١).

وصف الجهلة

قال في ترجمة واعظ بلخ:

(سمع الكثير من قتيبة بن سعيد يقول: ذهاب الإسلام من أربعة: لا يعملون بما يعلمون، ويعلمون بما لا يعلمون، و لا يتعلمون ما لا يعلمون، ويمنعون الناس من العلم.

قلت: هذه نعوت رؤوس العرب والترك، وخلق من جهلة العامة، فلو عملوا بيسر ما عرفوا لأفلحوا، ولو وقفوا عن العمل بالبدع لوفقوا، ولو فتشوا عن دينهم وسألوا أهل الذكر، لا أهل الحيل والمكر لسعدوا، بل يعرضون عن التعلم تيهاً وكسلاً، فواحدة من هذه الخلال مردية، فكيف بها إذا اجتمعت؟! فما ظنك إذا انضم إليها كبر، وفجور، وإجرام، وتجهُّرٌ على الله؟! نسأل الله العافية^(٢).

وصف طلبية العلم في عصره

قال في ترجمة هدبة بن خالد:

(رافق أخاه في الطلب، وتشارك في ضبط الكتب، فساغ له أن يروي من كتب أخيه، فكيف بالماضين، لو رأونا اليوم نسمع من أي صحيفة مصحفة على أجهل شيخ له إجازة، ونروي من نسخة أخرى بينهما من الاختلاف والغلط ألوان، ففاضلنا يصحح ما تيسر من حفظه، وطالبنا يتشاغل بكتابة أسماء الأطفال، وعالمنا ينسخ، وشيخنا ينام، وطائفة من

(١) السير: (١٠/١٤٠).

(٢) السير: (١٤/٥٢٥).

الشبيبة في وادٍ آخر من المشاكلة والمحادثة، لقد اشتفى بنا كلُّ مبتدع، ومَجَّنَّا كلُّ مؤمن، أفهؤلاء الغُثاء هم الذين يحفظون على الأمة دينها؟! كلا والله، فرحم الله هُدْبَةَ وأين مثل هُدْبَةَ؟ نعم ما هو في الحفظ كشعبة^(١).

وقال رحمه الله:

(قال محمد بن يوسف الفريابي: كنت أمشي مع ابن عيينة، فقال لي: يا محمد، ما يُزهِدني فيك إلا طلب الحديث. قلت: فأنت يا أبا محمد، أيُّ شيء كنت تعمل إلا طلب الحديث؟ فقال: كنت إذ ذاك صبيًّا لا أعقلُ.

قلت: إذا [كان] مثلُ هذا الإمام يقولُ هذه المقالة في زمن التابعين، أو بعدهم بيسير، وطلب الحديث مضبوطًا بالاتفاق، والأخذ عن الأثبات الأئمة، فكيف لو رأى سفيان رحمه الله طَلَبَةَ الحديث في وقتنا، وما هم عليه من الهنات والتخييط، والأخذ عن جهلة بني آدم، وتسميع ابن شهر.

أَمَّا الْخِيَامُ فَإِنَّهَا كَخِيَامِهِمْ وَأَرَى نِسَاءَ الْحَيِّ غَيْرَ نِسَائِهَا^(٢).

وقال:

(كانوا- أي السلف- مع حسن القصد، وصحة النية غالبًا يخافوا من الكلام، وإظهار المعرفة والفضيلة، واليوم يكثرون الكلام مع نقص العلم، وسوء القصد، ثم إن الله يفضحهم، ويلوح جهلهم وهواهم واضطرابهم فيما علموه، فنسأل الله التوفيق والإخلاص^(٣)).

(١) السير: (٩٩ / ١١).

(٢) السير: (٤٦٣ / ٨).

(٣) السير: (٤٦٤ / ١٥).

وقال في ترجمة إسحاق بن بهلول: (قال أبو طالب أحمد بن محمد إسحاق بن البهلول:

تذاكرت أنا وابن صاعد ماحدث به جدِّي ببغداد، فقلت له: قال لي أنيس المستملي: إنه حدث من حفظه بأربعين ألف حديث، فقال ابن صاعد: لا يدري أنيس ما قال، حدث إسحاق بن البهلول من حفظه ببغداد بأكثر من خمسين ألف حديث.

قلت: كذا فليكن الحفظ وإلا فلا، قنعنا اليوم بالاسم بلا جسم، فلو رأى الناس في وقتنا من يروي ألف حديث بأسانيدها حفظاً لانبهروا له^(١).

وقال رحمه الله:

(قال عبد الرحمن بن داود بن منصور الفارسي: سمعت حفص بن عُمر قال: ما رأيت مثل قبيصة، ما رأيته متبسماً قط، من عباد الله الصالحين.

قلت: كذا كان والله أهل الحديث، العلم والعبادة، واليوم فلا علم ولا عبادة، بل تخييط ولحن، وتصحيف كثير، وحفظ يسير، وإذا لم يرتكب العظائم، ولا يُخل بالفرائض، فله دره^(٢).

قال رحمه الله:

(قال أبو عبد الله الحاكم: إسحاق، وابن المبارك، ومحمد بن يحيى هؤلاء دفنوا كتبهم.

قلت: هذا فعله عدة من الأئمة، وهو دالٌّ أنهم لا يرون نقل العلم وجادة، فإن الخط قد يتصحف على الناقل، وقد يمكن أن يزداد في الخط حرف فيغير المعنى، ونحو ذلك. وأما اليوم فقد اتسع الخرق، وقلَّ تحصيل العلم من أفواه الرجال، بل ومن الكتب غير المغلوطة، وبعض النقلة للمسائل قد لا يحسن أن يتهجى^(٣).

(١) السير: (١٢ / ٤٩٠).

(٢) السير: (١٠ / ١٣٤).

(٣) السير: (١١ / ٣٧٧).

التقعر في العلم

قال رحمه الله:

(قال المبرد: قال رجلٌ لهشامُ الفوطي: كم تعدُّ من السنين؟ قال: من واحدٍ إلى أكثرٍ من ألف. قال: لم أَرِدْ هذا، كم لك من السنِّ؟ قال: اثنان وثلاثون سنّاً. قال: كم لك من السنين؟ قال: ما هي لي، كُلُّها لله. قال: فما سنك؟ قال: عظم. قال: فابن كم أنت؟ قال: ابنُ أمٍّ وأبٍ؟ قال: فكم أتى عليك؟ قال: لو أتى عليَّ شيءٌ، لقتلني قال: ويحك، فكيف أقول؟ قال: قل: كم مضى من عُمرِكَ.

قلت: هذا غايةٌ ما عند هؤلاء المتقعرين من العلم، عباراتٌ وشقاشقٌ لا يعبأ الله بها، يُحَرِّفون بها الكَلِمَ عن مواضعه قديماً وحديثاً فنعوذ بالله من الكلام وأهليه^(١).

التقليد والاجتهاد

قال رحمه الله:

(من بلغ رتبة الاجتهاد، وشهد له بذلك عدة من الأئمة، لم يَسْغُ له أن يقلّد، كما أن الفقيه المبتدئ والعامي الذي يحفظ القرآن أو كثيراً منه لا يسوغُ له الاجتهاد أبداً، فكيف يجتهد، وما الذي يقول؟ وعلام يسي؟ وكيف يطير ولما يُرَيِّش؟ والقسم الثالث: الفقيه المنتهي اليقظ الفهم المحدث، الذي قد حفظ مختصراً في الفروع، وكتاباً في قواعد الأصول، وقرأ النحو، وشارك في الفضائل مع حفظه لكتاب الله وتشاغله بتفسيره وقوة مناظرته، فهذه رتبة من بلغ الاجتهاد المقيّد، وتأهل للنظر في دلائل الأئمة، فمتى وضح له الحقُّ في مسألة، وثبت فيها النص، وعمل بها أحدُ الأئمة الأعلام كأبي حنيفة مثلاً، أو

(١) السير: (١٠/٥٤٧).

كمالك، أو الثوريّ، أو الأوزاعي، أو الشافعي، وأبي عبيد، وأحمد، وإسحاق، فليَتَّبِعْ فيها الحق ولا يسلكِ الرخصَ، وليتورّع، ولا يسعهُ فيها بعد قيام الحجة عليه تقليد، فإن خاف من يشغّب عليه من الفقهاء، فليتكتم بها ولا يتراءى بفعلها، فرمما أعجبتَه نفسه، وأحب الظهور، فيعاقب ويدخل عليه الداخل من نفسه^(١).

وقال:

(قال شيخ: إن الإمام لمن التزم بتقليده، كالنبي مع أمته، لا تحلُّ مخالفته.

قلت: قوله لا تحلُّ مخالفته: مجرد دعوى، واجتهاد بلا معرفة، بل له مخالفة إمامه إلى آخره، حجّته في تلك المسألة أقوى، لا بل عليه إتباعُ الدليل فيما تبرهن له، لا كمن تمذهب لإمام، فإذا لاح له ما يوافق هواه، عمل به من أيّ مذهب كان، ومن تتبّع رُخصَ المذاهب، وزلّاتِ المجتهدين، فقد رقّ دينه، كما قال الأوزاعي أو غيره: من أخذ بقول المكيين في المتعة، والكوفيين في النبذ، والمدنيين في الغناء، والشاميين في عصمة الخلفاء، فقد جمع الشرّ. وكذا من أخذ في البيوع الربوية بمن يتحيّل عليها، وفي الطلاق وفي نكاح التحليل بمن توسّع فيه، وشبه ذلك، فقد تعرّض للانحلال، فنسأل الله العافية والتوفيق.

ولكن شأن الطالب أن يدرس أولاً مصنفًا في الفقه، فإذا حفظه، بحثه، وطالع الشروح، فإن كان ذكيًا، فقيه النفس، ورأى حُجج الأئمة، فليراقب الله، وليحتطّ لدينه، فإن خير الدين الورعُ، ومن ترك الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، والمعصوم من عصمة الله.

فالقلّدون صحابةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، بشرط ثبوت الإسناد إليهم، ثم أئمة التابعين كعلقمة، ومسروق، وعبيدة السلماني، وسعيد بن المسيّب، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبّير، وعبيد الله بن عبد الله، وعُروة، والقاسم، والشّعفي، والحسن، وابن

(١) السر: (١٨/١٩١).

سيرين، وإبراهيم النخعي.

ثم كالزهرى، وأبي الزناد، وأيوب السختياني، وربيعه، وطبقتهم.

ثم كأبي حنيفة، ومالك، والأوزاعي، وابن جريج، ومغمر، وابن أبي عروبة، وسفيان الثوري، والحماديين، وشعبة، والليث، وابن الماجشون، وابن أبي ذئب.

ثم كابن المبارك، ومسلم الزنجي، والقاضي أبي يوسف، والهقل بن زياد، ووكيع، والوليد بن مسلم، وطبقتهم.

ثم كالشافعي، وأبي غبيد، وأحمد، وإسحاق، وأبي ثور، والثيوطي، وأبي بكر بن أبي شيبة.

ثم كالزني، وأبي بكر الأثرم، والبخاري، وداود بن علي، ومحمد بن نصر المروزي، وإبراهيم الحاربي، وإسماعيل القاضي.

ثم كمحمد بن جرير الطبري، وأبي بكر بن خزيمة، وأبي عباس بن سرنج، وأبي بكر بن المنذر، وأبي جعفر الطحاوي، وأبي بكر الحلال.

ثم من بعد هذا النمط تناقص الاجتهاد، ووُضعت المختصرات، وأُخلد الفقهاء إلى التقليد، من غير نظرٍ في الأعم، بل بحسب الاتفاق، والتشهي، والتعظيم، والعادة، والبلد. فلو أراد الطالب اليوم أن يتمذهب في المغرب لأبي حنيفة، لعسر عليه، كما لو أراد أن يتمذهب لابن حنبل ببخارى، وسمرقند، لصعب عليه، فلا يجيء منه حنبلي، ولا من المغربي حنفي، ولا من الهندي مالكي. وبكل حال: فإلى فقه مالك المنتهى. فعامة آرائه مسددة، ولو لم يكن له إلا حسم مادة الحيل، ومراعاة المقاصد، لكفاه.

ومذهبه قد ملأ المغرب، والأندلس، وكثيراً من بلاد مصر، وبعض الشام، واليمن، والسودان، والبصرة، وبغداد، والكوفة، وبعض خراسان.

وكذلك اشتهر مذهب الأوزاعي مدة، وتلاشى أصحابه، وتفانوا. وكذلك مذهب سُفيان وغيره ممن سميوا، ولم يبق اليوم إلا هذه المذاهب الأربعة. وقل من ينهض بمعرفتها كما ينبغي، فضلاً عن أن يكون مجتهداً.

وانقطع أتباع أبي ثور بعد الثلاث مائة، وأصحاب داود إلا القليل، وبقي مذهب ابن جرير إلى [ما] بعد الأربع مائة.

وللزيدية مذهب في الفروع بالحجاز وباليمن، لكنه معدود في أقوال أهل البدع، كالإمامية، ولا بأس بمذهب داود، وفيه أقوال حسنة، ومتابعة للنصوص، مع أن جماعة من العلماء لا يعتدّون بخلافه، وله شذوذ في مسائل شانت مذهبه.

وأما القاضي، فذكر ما يدل على جواز تقليدهم إجماعاً، فإنه سُمي المذاهب الأربعة، والسفانية، والأوزاعية، والداوودية. ثم إنه قال: فهؤلاء الذين وقع إجماع الناس على تقليدهم، مع الاختلاف في أعيانهم، واتفاق العلماء على اتباعهم، والإقتداء بمذاهبهم، ودرس كتبهم، والتفقه على مأخذهم، والتفريع على أصولهم، دون غيرهم ممن تقدمهم أو عاصروهم، للعلل التي ذكرناها.

وصار الناس اليوم في الدنيا إلى خمسة مذاهب، فالخامس: هو مذهب الداوودية. فحق على طالب العلم أن يعرف أولاهم بالتقليد، ليحصل على مذهبه. وها نحن نبين أن مالكا رحمه الله هو ذلك، لجمعه أدوات الإمامة وكونه أعلم القوم.

ثم وجه القاضي دعواه، وحسنها ونمقها، ولكن ما يعجز كل واحد من حنفي، وشافعي، وحنبلي، وداوودي، عن ادعاء مثل ذلك لمتبوعه، بل ذلك لسان حاله، وإن لم يقف به.

ثم قال القاضي عياض: وعندنا والله الحمد لكل إمام من المذكورين مناقب، تقضي له بالإمامة.

قلت: ولكن هذا الإمام الذي هو النجم الهادي قد أنصف، وقال قولاً فصلاً، حيث

يقول: كل أحد يؤخذ من قوله، ويُترك، إلا صاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم.

و لا ريب أن كلَّ من أنسَ من نفسه فقهاً، وسعة علم، وحسن قصد، فلا يسعه الالتزام بمذهب واحد في كل أقواله، لأنه تبرهن له مذهب الغير في مسائل، ولاح له الدليل، وقامت عليه الحجة، فلا يقلدُ فيها إمامه، بل يعملُ بما تبرهن، ويقلدُ الإمامَ الآخرَ بالبرهان، لا بالتشهيُّ والغرض. لكنه لا يفقي العامة إلا بمذهب إمامه، أو ليصمت فيما خفي عليه دليله^(١).

وقال:

(ما يتقيد بمذهب واحد إلا من هو قاصد في التمكن من العلم كأكثر علماء زماننا، أو من هو متعصب)^(٢).

كتم العلم

قال في ترجمة أبي هريرة:

(محمد بن راشد، عن مكحول قال: كان أبو هريرة يقول: رب كيس عند أبي هريرة لم يفتحه، يعني من العلم.

قلت: هذا دال على جواز كتمان بعض الأحاديث التي تحرك فتنة في الأصول، أو الفروع، أو المدح والذم، أما حديث يتعلق بحل أو حرام، فلا يحل كتمانها بوجه، فإنه من البينات والهدى، وفي «صحيح البخاري» قول الإمام علي رضي الله عنه: (حدثوا الناس بما

(١) السير: (٨ / ٩٠).

(٢) السير: (١٤ / ٤٩١).

يعرفون ودعوا ما ينكرون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله^(١).

وكذا لو بث أبو هريرة ذلك الوعاء لأوذي بل لقتل، ولكن العالم قد يؤديه اجتهاده إلى أن ينشر الحديث الفلاني إحياء للسنة، فله ما نوى، وله أجر وإن غلط في اجتهاده^(٢).

وقال:

(صحَّ أن أبا هريرة كتم حديثاً كثيراً مما لا يحتاجه المسلم في دينه، وكان يقول: لو بثَّته فيكم لقطع هذا البلعوم^(٣)، وليس هذا من باب كتمان العلم في شيء، فإنَّ العلم الواجب يجب بثُّه ونشره ويجب على الأمة حفظه، والعلم الذي في فضائل الأعمال مما يصحُّ إسناده يتعين نقله ويتأكد نشره، وينبغي للأمة نقله، والعلم المباح لا يجب بثُّه ولا ينبغي أن يدخل فيه إلا خواصُّ العلماء.

والعلم الذي يحرم تعلُّمه ونشره علمُ الأوائل وإلهيات الفلاسفة، وبعضُ رياضتهم بل أكثره، وعلمُ السَّحر، والسِّيمياء، والكيمياء، والشَّعْبة، والحِيل، ونشر الأحاديث الموضوعية، وكثيرٌ من القصص الباطلة أو المنكرة، وسيرة البطال المختلفة، وأمثال ذلك، ورسائل إخوان الصِّفا، وشعرٌ يُعرض فيه إلى الجناب النبوي، فالعلوم الباطلة كثيرة جداً فلتَحذَر، ومن ابتلي بالنظر فيها للفرجة والمعرفة من الأذكياء، فليقلِّل من ذلك، وليطالعه وحده، وليستغفر الله تعالى، وليلتجئ إلى التوحيد، والدُّعاء بالعافية في الدِّين، وكذلك أحاديث كثيرةٌ مكذوبة وردت في الصِّفات لا يحلُّ بثُّها إلا التحذير من اعتقادها، وإن أمكن إعدامها فحسن. اللهم فاحفظ علينا إيماننا، ولا قوَّة إلا بالله^(٤).

(١) البخاري: (٢٧٢ / ١)، دون قوله: ((ودعوا ما ينكرون)).

(٢) السير: (٥٩٧ / ٢).

(٣) أخرجه البخاري: ((كتاب العلم)) باب حفظ العلم.

(٤) السير: (٦٠٣ / ١٠).

قال رحمه الله:

(ينبغي للمحدث أن لا يُشهرَ الأحاديث التي يتشبَّث بظاهرها أعداء السنن من الجهميَّة، وأهل الأهواء، والأحاديث التي فيها صفات لم تثبت، فإنَّك لن تحدِّثَ قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم، إلا كان فتنةً لبعضهم، فلا تكتُم العلم الذي هو علمٌ، ولا تبدِّله للجهلة الذين يشغبون عليك، أو الذين يفهمون منه ما يضرُّهم^(١)).

وقال:

(كلامُ الأقران إذا تبرهنَ لنا أنه بهوى وعصبيَّة، لا يلتفتُ إليه، بل يُطوى ولا يُروى، كما تقرَّر عن الكفِّ عن كثيرٍ مما شَجَرَ بين الصحابة وقتلهم رضي الله عنهم أجمعين، وما زال يمرُّ بنا ذلك في الدواوين والكتب والأجزاء، ولكن أكثر ذلك منقطع وضعيف، وبعضه كذبٌ، وهذا فيما بأيدينا وبين علمائنا، فينبغي طيُّه وإخفاؤه، بل إعدامه لتصفو القلوب، وتتوفرَ على حبِّ الصحابة، والترضي عنهم، وكتمان ذلك متعيَّن عن العامة وآحاد العلماء، وقد يُرخصُ في مطالعة ذلك خلوةً للعالم المنصفِ العريِّ من الهوى، بشرط أن يستغفرَ لهم، كما علمنا الله تعالى حيث يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سورة الحشر: (١٠)]، ثم قد تكلم خلقٌ من التابعين بعضهم في بعض، وتخابروا، وجرت أمورٌ لا يمكن شرحها، فلا فائدة في بثِّها، ووقع في كتب التواريخ وكتب الجرح والتعديل أمورٌ عجيبةٌ، والعاقِلُ خصمُ نفسه، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، ولحوم العلماء مسمومةٌ، وما نقلَ من ذلك لتبيين غلط العالم، وكثرة وهمه، أو نقصِ حفظه، فليس من هذا النمط^(٢)).

(١) السير: (١٠/ ٥٧٨).

(٢) السير: (١٠/ ٩٢).

